

نشاط السانسيمنيين في مصر 1833 - 1836 م

أ. مصطفى عبيد

جامعة المسيلة

ملخص

ظهرت بأوروبا نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 مذاهب متعددة بالنظر إلى الأوضاع التي شهدتها هذه القارة تحديداً، وكان من بين التيارات الناشئة مذهب السانسيمنية الذي يعود إلى سان سيمون (1760-1825)، حيث كان يهدف أتباعه إلى تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بإقامة نظام اجتماعي اقتصادي يهدف إلى احترام حقوق الإنسان ونيل الاستغلال.

وتيار السانسيمنية ذو توجه اشتراكي جماعي بقدر ما ولد في أوروبا في القرن 19 فإنه انتشر إلى خارج القارة وامتد زماناً إلى ما بعد

القرن 19.

والمقال يتحدث عن نشأة هذا الفكر وتوجهه ومبادئه والظروف التي أثرت فيه ثم نشاط أتباع هذا التيار سواء أثناء عهد مؤسسه أو

فيما بعد.

Resumé:

Le saint-simonisme est une doctrine socialiste apparue en Europe avec Saint Simon (1760 - 1825) au début du XIXe siècle, Elle a également été appelée à l'application de la justice sociale et empêcher l'exploitation de l'homme par l'homme... et l'accès aux zones de richesse ...

D'après les consignes d'Enfantin , Les Saint Simoniens sont entrés en Egypte en 1833 mais ont échoués à gagner la confiance de Mohamed Ali qui a accordé les activités à des ingénieurs anglais.

Si les Saint-simoniens n'ont pas pu appliquer leurs idées dans le grand projet du canal de Suez, ils ont en revanche, appliqué leur génie dans l'agriculture et l'instruction publique en fondant une classe culturelle égyptienne très spéciale .

لمصر أهمية كبيرة منذ الحقب التاريخية القديمة، وازدادت أهميتها بعد تفكيك رموز الكتابة الهيروغليفية بعد فك شفرة الحجر الرشيد من طرف الفرنسيين مطلع القرن التاسع عشر الميلادي خلال حملتهم عليها. ومنذ تلك الفترة دخلت مصر مرحلة جديدة من حياتها جعلتها في مصاف الدول الضاربة بحضارتها وإنجازاتها في قدم التاريخ البشري. ولذا اهتم بها الفرنسيون سيما السانسييموني الباحث عن مكان له بين التيارات الفلسفية والنظريات الاجتماعية المتصارعة في أوروبا المقبلة على تشكيل جديد بسبب حروب 1830. وحاول تطبيق أفكاره بما ليرد الاعتبار لنفسه بعد اتهامات الحكومة الفرنسية لقادته وتعرضهم للسجن والمطاردة.

والإشكالية التي أردنا معالجتها في هذا المقال هي: ما النشاطات التي قام بها التيار السانسييموني في مصر منذ انتقال نخبته هناك سنة 1833 وإلى غاية خروجهم منها سنة 1836 ؟

1- لمحة تاريخية عن الفكر السانسييموني:

السانسييمونية أو "Saint-simonisme" باللغة الفرنسية، مذهب أيديولوجي اشتراكي مثالي ظهر في أوروبا مطلع القرن التاسع عشر الميلادي على يد سان سيمون فنسب إليه. دعت السانسييمونية إلى إقامة العدل واحترام الإنسان ومنع استغلاله من طرف الإنسان، كما دعت إلى الابتعاد عن المادية البحتة من خلال دعوتها إلى تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص من خلال استفادة جميع أفراد المجتمع من الثروة والأرباح وحماية الدولة⁽¹⁾ (أبو القاسم سعد الله، بيروت، 1998، ص 437). وكذا من خلال تفضيل المصلحة العامة، ونبذ الأنانية، وإحلال مشاعر التضامن والكرامة محلها. وقد رأى مارسيل إيميريت في دراسته التي خص بها التيار السانسييموني أن التنمية المادية التي تدعو إليها السانسييمونية هي وسيلة لتحقيق تلك الأهداف ، وليست غاية في حد ذاتها⁽²⁾ (Emerit Marcel, Paris, 1974, p 15-16).

كان السانسييمونيون مهووسين بالنشاط الاقتصادي الذي هو أساس الثروة المالية، وأن المال عندهم هو الأساس الأول لقيادة العالم، ولذا كانت اهتمامات سان سيمون منصبه على الاقتصاد والشراء، ونشر ذلك في مجلته الشهيرة (Le Globe) أو "الكرة الأرضية"، كما كانت اهتماماته كبيرة جدا بالوصول إلى مناطق الثروات والأسواق ولذا كان دائم السعي في محاولات ربط البحار والمحيطات بالتقنيات كما سيمر بنا. مع ضرورة الإشارة إلى أن الهدف الأساسي الذي سعى إليه هؤلاء هو دمج العالمين الشرقي والغربي تحت شعار تحقيق الوحدة بينهما، على أن يكون الغرب فاعلا والشرق مفعولا به.

2- لمحة موجزة عن سان سيمون: 1760 – 1825:

هو كلود هنري دو روفروي "Claude-Henri de Rovroy" ، ينحدر من أسرة نبيلة مكونة من ثمانية أبناء. ولد في 17 أكتوبر 1760، قضى طفولته في حيوية وعزم، وحاول تأسيس أول لبنة للمذهب الاشتراكي. ولكن أباه رفض ذلك لأنه لم يكن يريد لولده أن يكون بدعا من البشر. واضطر الأب - كعقاب لابن - أن يدخله سجن سان لازار "Saint-Lazare" إلا أن سان سيمون استطاع الفرار من السجن بعد أن انتزع مفاتيحه من الحارس. وظل لاجئا إلى أن احتضنه سقف الأبوة من جديد .

دخل سان سيمون سنة 1777، في خدمة الجيش الفرنسي وأصبح بذلك تابعا للقطاع العسكري برتبة ضابط، وتوجه سنة 1779 إلى الولايات المتحدة الأمريكية وشارك في حركتها التحررية ضد الإنجليز. وذلك في إطار دفاعه عن المستضعفين من جهة، والصراع الفرنسي

الإنجليزي من جهة ثانية. وبعد الاستقلال قام بجولة في دول أمريكا اللاتينية، واقترح على نائب الملك المكسيكي شق قناة لربط البحرين عن طريق مياه نهر إنبارتيدو، وأطلق على هذه القناة اسم قناة إنبارتيدو. لكن السلطات المكسيكية لم تأخذ المطلب والمشروع مأخذ الجد فعاد سان سيمون إلى فرنسا .

اتجه سان سيمون سنة 1885 إلى هولندا، وقد كان بها القنصل الفرنسي السيد دو لا فوغيون " De la Vau Guyon " ، وحينها أعدت هولندا بالاشتراك مع فرنسا حملة ضد الهند للقضاء على النفوذ الإنجليزي بالمنطقة. وبفعل حزمه وصرامته جعل قائد الحملة السيد دو بويي " De Bouillé " سان سيمون فيها متابعاً ومراقباً .

عاد سان سيمون إلى فرنسا سنة 1886، و في السنة الموالية اتجه إلى إسبانيا برفقة الكونت دو كاباروس " De Cabarrus " الذي كان آنذاك مديراً لبنك سان شارل، واقترحا على السلطات الإسبانية شق قناة لربط مدريد بالبحر المتوسط. ولكن السلطات الإسبانية لم تأخذ هي الأخرى الطلب مأخذ الجد . كما أن أحداث الثورة الفرنسية سنة 1789 جعلت سان سيمون يعود إلى فرنسا، مشاركاً فيها ليس كداعٍ للعنف، وإنما بحكمة الفلاسفة ونشر الأفكار المنظمة للسياسة والمجتمع. وعين في نوفمبر 1789 على رأس اللجنة الانتخابية لبلديته فالفي " Falvy " للسهر على الانتخابات البلدية .

تعرض سان سيمون للسجن مرّة أخرى، وهذه المرة من طرف تيار اليعاقبة الذي مارس الإرهاب الأسود في فرنسا، وذلك نظراً إلى علاقة سان سيمون لسفير بروسيا في فرنسا السيد دو رودارن " De Redern " مما جعل اليعاقبة ينظرون إليه بارتياب، فاعتقل أحد عشر شهراً في سجن سانت بيلاجي ثم بالكسمبورغ. وفي السجن وسّع سان سيمون من معارفه في الشؤون السياسية والعسكرية، والأفكار والنظريات التنظيمية. كما اطلع على الميثافيزيقا والتاريخ القديم للإغريق والرومان. ودرس المالية والاقتصاد وبرع فيهما إلى غاية 1797 .

قال سان سيمون: "لقد أبعدت سنة 1801 عن المدرسة المتعددة التقنيات، فسجلت في مدرسة الطب المجاورة لها، وربطت علاقات مع الفيزيولوجيين، ولم افترق معهم إلا بعد أن أخذت معرفة دقيقة عن أفكارهم العامة حول الفيزياء والأجسام المنظمة". كما نظم، على حسابه، دروساً لدراسة المواد والبرامج التي تدرّس في المدرسة المتعددة التقنيات من طرف شبان، قال سان سيمون عنهم، أنهم من خريجيها وأنهم أصبحوا علماء فيما بعد كان سان سيمون مولعاً بالعلم والصناعة والتقنيات، ولذا ذهب إلى إنجلترا وألمانيا وربط علاقات مع رجال العلم والآداب والفنون، وكان بحاجة إلى المال، فعمل نساخاً ودعّمه صديقه ديار Diard بالمال فألف كتابه مقدمة للأعمال العلمية في القرن التاسع عشر. كما عمل مساعد أمين مكتبة الترسانة Arsenal لمدة قليلة. وأصدر خلال هذه الفترة وإلى غاية سنة وفاته 1825 مجلة الصناعة. ومجلة السياسة بمعية أوغست كونت، وألف كتاب المنظم شرح فيه أفكاره في المجال الصناعي. هذا إضافة إلى كثير من المطبوعات بين سنتي 1823 – 1825 آخرها مطبوعة المسيحية الجديدة Le nouveau christianisme التي دعا فيها إلى ضرورة الاهتمام بالطبقة العاملة والقضاء على الملكية الخاصة، وتدخل الدولة في الاقتصاد⁽³⁾ (مصطفى عبيد، الجزائر، 2013، ص 35-38).

3- التحاق السانسيمونيين بمصر:

يعود تفكير السانسيمونيين في الالتحاق بمصر إلى سنة 1833 تاريخ الأزمة التي حلّت بهم خلال تلك السنة. والتي كانت بسبب تشديد الحكومة الفرنسية الخناق على حركيتهم منذ ثورة 1830 التي أطاحت بالملك شارل العاشر، وذلك بعد أن رأت فيهم الخطر

الاشتراكي القادم. سيما بعدما دأبوا على نشر كتبهم وأفكارهم في جرائدهم الأساسية آنذاك، وعلى رأسها جريدتا الكرة الأرضية Le Globe و المنتج Le Producteur⁽⁴⁾ (Michel Levallois, Paris, p 34).

كان أونفونتان قد خلف سان سيمون على رأس الحركة على إثر وفاة هذا الأخير سنة 1825. ولذا كان رفقة كبار الحركة من أمثال ديشتال، وميشال شوفالييه، هم أكبر المتضررين من هذه المضايقات، حيث تعرضوا للمحاكمة، وسجنوا، وأهينوا، ووضعوا في موقف حرج أمام الشعب على أنهم دعاة فوضى. بل وحتى تيار اليعاقبة كان يترصد نشاطهم بفرنسا ما بعد ثورة 1789.

قرر منظرو التيار السانسييموني الالتحاق بمصر " باعتبارها أهم أجزاء إفريقيا يمر بها المسلمون من مختلف أنحاء القارة في طريقهم إلى الأماكن المقدسة، كما تقع في أكثر الجهات ملائمة لتسيير الحملات منها إلى مختلف الجهات، ولدى أهلها استعداد لتذوق العلوم والمعارف⁽⁵⁾ (محمود صالح منسي، مصر، ص 18). وكذلك لوجود الكثير من الفرنسيين في رؤوس إدارة المؤسسات المصرية خاصة على عهد محمد علي، الذي تعاون مع الفرنسيين والإنجليز على الخصوص. وبذلك، فإنّ مناخ مصر المناخ الخصب لممارسة السانسييمونيين أفكارهم معتمدين على دعم الحكومة الفرنسية لهم، باعتبار أنهم آلية نفوذ فرنسي بمصر في مواجهة الإنجليز.

من أجل ذلك، عملت الحكومة الفرنسية على تسهيل انتقال السانسييمونيين إلى مصر، وتكفلت بدفع ثمن السفن التي تنقلهم إذا عجز هؤلاء عن تسديد حقوق انتقالهم، وأمرت قنصلها بمصر السيد ميمو " Mimaut"، وكان مستشارا لدى السانسييمونيين، بالتدخل لدى محمد علي، للسماح للسانسييمونيين بالاستقرار بمصر. خاصة وأن محمد علي كان ينظر إليهم بعين الريبة، بفعل موقف الحكومة المصرية، وبفعل موقف السلطان العثماني، حين استقر الفوج الثاني منهم بالأستانة في أبريل 1833. فرغم الارتياح الذي أبداه تجاههم إلا أنه أشار عليهم بمواصلة مسيرتهم إلى مصر⁽⁶⁾ (مصطفى عبيد، الجزائر، 2013، ص 48).

بعث أونفونتان الفوج الأول من أتباعه إلى مصر في 7 أبريل 1833 على سفينة نمساوية، ودخلوا مصر مع نهاية الشهر. وضم هذا الفوج: السادة كايول Cayol، و بانتييه Pantier، وجيرمين Germain، وفليشي Flichy، واستقروا بادئ الأمر عند أحد الرعايا الفرنسيين وهو السيد كافيليا " Caviglia" قبل أن يكون لهم مقر للاجتماع ونشر أفكارهم.

أما الفوج الثاني فقد غادر فرنسا باتجاه مصر، على سفينة لاكلوريند La Clorinde ودخلها بتاريخ 24 ماي 1833، وقد ضم: بارو، أوريان، جرنال Granal، ريغو Rigaud، كونيا Cogniat، ديشارم Descharmes، براكس Prax، دافيد David، أليك Alric، تورنو Tourneux، طوشيه Toché، كارولوس Carolus، جيستوس Justus. أما أونفونتان فقد لحق بأتباعه بعد أن قضى عقوبة السجن، ونزل بمصر في 23 أكتوبر 1833.

4- نشاط السانسييمونيين بمصر:

4-1- قناة السويس على رأس مشاريع السانسييمونيين:

لم يكن مشروع شق قناة السويس آنذاك حديث الطرح، فقد طرحته الأسر الفرعونية الحاكمة في مصر منذ القدم، وحاولوا إيصال نهر النيل المقدس عندهم بالبحر. كما فكرت فرنسا في نهاية القرن السادس عشر في فتح ممر بحري (برزخا) يربط البحرين الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر من أجل اتخاذه طريقا لتجارها إلى الهند والهند الشرقية، منافسة بذلك إنجلترا وإسبانيا وهولندا والبرتغال في الوصول إلى جزر المحيط الهندي⁽⁷⁾ (اسماعيل أحمد ياغي، 1997، ص 187).

كما حاول علماء الحملة الفرنسية على مصر 1798 - 1801، شق القناة، ووضع لها السيد غراتيان لوبيير الدراسات التي تمكنهم من ذلك⁽⁸⁾ (جراتيان لوبيير، مصر، ص 17-40)، كما أن سان سيمون اهتم بهذا الجانب من أجل توفير مجال الحركة التجارية، فطلب من الرئيس المكسيكي السماح له بشق قناة أنبارتيدو بالمكسيك، كما طلب من السلطات الإسبانية السماح له بشق قناة تربط مدينة مدريد بالبحر المتوسط. كما فكر سان سيمون أيضا في شق قناة لربط نهر الدانوب بنهر الراين، وقناة أخرى لربط نهر الراين ببحر البلطيق. إضافة إلى التفكير في شق قناة لربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر. وهي قناة السويس التي وصل أتباعه - بعد وفاته - إلى تحقيقها وإهدائها لروحه.⁽⁹⁾ (محمود صالح منسي، مصر، ص 17)

وبذلك كان المشروع الأساسي للسانسيمونيون في مصر هو شق قناة السويس، بل ومن أجلها ذهبوا إلى هناك، حيث جعلوها على رأس اهتمامات سياستهم الاقتصادية، رغبة منهم في فتح المجال أمام التصنيع. باعتبار أهمية القناة للنشاط التجاري، والاحتياج إلى مراكز التمويل والتسويق، مما يفتح المجال واسعا أمام حركة المواصلات وشق طرق السكة الحديدية.

كان السانسيمونيون يدركون جيدا نظرة الريية التي ينظر بها إليهم محمد علي، ومصممين على تغيير النظرة الفرنسية الرسمية والشعبية إلى تيارهم، حتى يعودوا إلى فرنسا مرفوعي الرؤوس. فربطوا علاقات طيبة بكبار المسؤولين مثل القنصل ميمو، ونائبه ديلسبس، والسيد جيل Jule ، وطمانوا محمد علي، وأقنعوا السلطات الإنجليزية أن مشروع شق قناة السويس الذي جاءوا من أجله، لم يكن أبدا من أجل بسط النفوذ الفرنسي في مصر. ولذا دعوا إلى تدويل المشروع حتى لا تستفيد منه دولة واحدة، وهم متخوفون في ذلك من إنجلترا⁽¹⁰⁾ (Ismail Urbain, 1993, p 57).

بعد تدخل القنصل الفرنسي ميمو لدى محمد علي، تدخل دي ليسبس أيضا -بصفته نائبا للقنصل الفرنسي بمصر، ولم يكن على صلة فكرية بالتيار السانسيموني- وأقنع محمد علي ببقاء السانسيمونيون بأرض مصر. متعهدا له بأنه في حالة تسببهم في أي مشكل فيسيكون مصيرهم الطرد الرسمي. وقد استمرت هذه المحاولات إلى غاية 18 ديسمبر 1833 (Ismail Urbain, 1993, p 44-49).

كان لمحمد علي جملة مشاريع يريد المفاضلة بينها تبعا للأولويات من أجل إنجازها بمصر، حيث كان له مشروع لبناء الجسور، وآخر لشق سكة حديد القاهرة - السويس - الإسكندرية، ومشروع ثالث وهو الذي طرحه السانسيمونيون من أجل شق قناة السويس. وبعد أن اقتنع محمد علي ببقاء السانسيمونيون بمصر، جلس إليه القنصل ميمو والسانسيموني فورنال⁽¹²⁾ ، بتاريخ 13 جانفي 1834، فعرض عليهما المشروع الذي كان قد عرضه على إنجلترا طالبا منها تزويده بمهندس من أجل شق سكة حديد القاهرة - السويس - الإسكندرية⁽¹³⁾ (Emerit Marcel, Paris, 1974, p 15-16)، مستفسرا عن احتياجات المشروع وعن مدة إنجازها. فرد فورنال بأنه هو من يقوم بذلك في مدة 24 ساعة. وفعلا عمل رفقة أليك نموذجًا للقطار وقدمه في اليوم الموالي لمحمد علي، الذي ورغم إعجابه بالنموذج، والمقترحات، إلا أنه لم يتخذ قرارا جديدا.⁽¹⁴⁾ (Ismail Urbain, 1993, p 57) وذلك بفعل الضغوطات الكبيرة التي تعرض لها من طرف الإنجليز ممثلين في المهندسين غالواي Galloway ، وكوكين Kekin ، ووالاس Wallace⁽¹⁵⁾ (Ismail Urbain, 1993, p 54) ، حيث أبقى على مشروع السكة الحديدية للمهندس الإنجليزي غالواي، وقرر انطلاق الأشغال في مشروع بناء الجسور. وذلك رغم محاولات فورنال -كما جاء في مذكراته- أن يقنع الوالي بالبدء في مشروع القناة، ودعوة الدول التي

يهمها الأمر للقيام بالأبحاث اللازمة، على أن يقدم محمد علي الأيدي العاملة التي تشتغل تحت إشراف مهندسين أوروبيين. هذا القرار السلبي بالنسبة إلى فورنال جعله يفشل ويقرر العودة إلى فرنسا. لأنه لا بقاء للسانسيمونيين في مصر دون نجاح مشروع شق قناة السويس. مما جعل أونفونتان الوثائق من أهمية بقاء فورنال بمصر وكذلك القنصل ميمو يتدخلان لدى محمد علي لمنح إدارة المناجم في سوريا لفورنال مقابل 1200 فرنك فرنسي سنويا، وهو المبلغ الذي رفضه المعني مشترطا مبلغا لا يقل عن 24 ألف فرنك فرنسي⁽¹⁶⁾ (محمود صالح منسي، مصر، ص 53).

4-2- السانسيمونيون وبناء الجسور

في إطار الإرادة والرغبة التي كانت تحذو السانسيمونيون في الوصول إلى مبتغاهم وهو الظفر بمشروع شق قناة السويس، قرروا المشاركة في المشاريع الأخرى، وكانت الانطلاقة من المشروع الذي قرر محمد علي الانطلاق فيه، وهو مشروع بناء الجسور، الذي كان منحه إلى المهندس الفرنسي لينان. محاولين جلب الانتباه إليهم من خلال إرضاء محمد علي بالمشاركة في المشاريع وجعل أنفسهم أداة لبناء الاقتصاد المصري، وعلى كفاءات مهندسيهم العالية، وهم خريجو المدرسة المتعددة التقنيات بفرنسا.

كانت البداية من المهندس أونفونتان الذي أعد خطوات العمل، والمهندس لومبير الذي جعل نفسه تحت التصرف، وأرسل أونفونتان عن طريق دوغي Duguet في جوان 1834 في طلب المدد من المهندسين للاشتراك بقوة في هذا المشروع، فوصل لاشيز " La Chèze " وهو طبيب، وديمولار Dumolard الحداد، والميكانيكي ألكسندر Alexandre. فيما عاد براكس من الأستاذة، وأوار وبرنو من فرنسا. كما وصلت في 14 ديسمبر 1834 الأنسة سوزان دي فوالكان Suzanne de voilquin برفقة المهندس درؤو Drouot المختص في المناجم، وغوندرى Gondriet المختص في الكيمياء⁽¹⁷⁾. وقد كان السانسيمونيون في كل ذلك يعيشون معيشة البدو الرحل، على لسان أوريان، حيث كانوا يعيشون على قليل من الأموال، باعتبار أنهم متطوعون في مشروع بناء الجسور، وينامون داخل الخيام حيث تأتيهم مؤونتهم وطعامهم⁽¹⁸⁾ (محمود صالح منسي، مصر، ص 53).

قرر محمد علي سنة 1835 توقيف مشروع بناء الجسور بسبب نقص في خطط الإعداد وكذلك بسبب انتشار وباء الطاعون، وقد راح ضحية وباء الطاعون هذا، كثير من السانسيمونيون وأولهم الطبيب فورساد Fourçade في فيفري 1835، وكان يمارس مهامه بمستشفى أبي زعل، وبسكو دي دومبال الذي أراد تطبيق المزرعة النموذجية، والمثال أليك في 9 أبريل 1835، كما لحق بهم المهندس لامي في 10 ماي، ثم مارشال و غوندرى، وديمولار وأوار في 12 أكتوبر 1835 الذي ترك أثرا كبيرا في نفوس زملائه السانسيمونيون. وربما كان آخرهم أوليفيه في 9 ماي 1836. في حين غادر جول سونيرا Jules Sonnerat، وماسول، وروجيه، وأونفونتان، مصر سنة 1836، وكذلك توماس أوريان الذي عاد إلى فرنسا مسلما حاملا اسم إسماعيل، فيما أسلم ماشيرو وحول اسمه إلى محمد أفندي وتزوج من امرأة مسلمة أنجب منها أربع فتيات سَمَّاهنَّ كلَّهنَّ بأسماء عربية⁽¹⁹⁾ (Ismail Urbain, 1993, p 57).

وتشير المصادر إلى أن عدد السانسيمونيون الذين التحقوا بمصر بين 1833 - 1836، كان 55 شخصا، توفي منهم 15 شخصا، وعاد منهم 20 شخصا إلى فرنسا وبقي 05 منهم في مصر، فيما لم تذكر القائمة مصير الباقين.

4-3- نشاط السانسيمونيون في التعليم

آمن السانسيونيون بالعلم والصناعة والنشاط الاقتصادي كما عرفنا، وكان أغلبهم مهندسون، من خريجي المدرسة المتعددة التقنيات بفرنسا. ولذلك جعلوا من أولوياتهم تكوين المهندسين بمصر، من أجل إقامة اقتصاد مصري أساسه الهندسة المدنية والعسكرية، والأشغال العمومية، والتصنيع. وما يتطلب ذلك من شق الطرق البرية، والسكك الحديدية، والملاحة البحرية. وتوفير المعادن بالتنقيب والمناجم... وكل ذلك لابد أن يكون لمصر متخصصون فيه.

من أجل ذلك اقترح أونفونتان على لبنان في 9 مارس 1834 إنشاء مدرسة لتكوين المهندسين في منطقة القناطر (الجسور)، ونقل إليها تلاميذ القصر العيني (أبناء الأسرة الحاكمة) وعُيّن محمد بيومي أفندي⁽²⁰⁾ مدرسا لهم، معوضا بذلك المهندس الإنجليزي الذي كان يدرس بها منذ تأسيسها⁽²¹⁾ (محمود صالح منسي، مصر، ص 64) وبعد توقف مشروع لبنان هذا بسبب نقص التخطيط وانتشار مرض الطاعون، قرر محمد علي ضم مدرسة المهندسين هذه إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق سنة 1836.

أصبحت مدرسة المهندسخانة أو المدرسة المتعددة التقنيات هذه، مدرسة لتخريج الطبقة الحاكمة، فمن درس بها لابد أن يكون يوما حاكما لبلاد مصر، كما استنتج الشيخ علي مبارك، حين قرّ من الكتابات ليصبح كاتباً صغيراً في هرم السلطة عند المماليك في مكتب عنبر أفندي، وحين خبر الأمر، علم أن هؤلاء الحكام قد درسوا في مدرسة القصر العيني⁽²²⁾ (أحمد أمين، بيروت، ص 187) وهي المدرسة التي نقل محمد علي تلاميذها إلى مدرسة المهندسخانة كما مرّ بنا.

كانت مدرسة المهندسين خلال فترتها الأولى ذات طبيعة عسكرية صارمة، لتكوين تلاميذها على التقشف والتمرّن على الصعاب، حيث كان المستوى التعليمي بها دون طموحات علي مبارك ابن الثانية عشر من عمره، وصاحب المستوى الدراسي البسيط. لقد كان فراش تلاميذها الحصر، وأكلها كان أدنى من الجبن والزيتون الذي كان علي مبارك يشتريهما من ماله الخاص مفضلاً إياهما عن طعامها... ولذا تعرّض خلال فترة دراسته بها إلى مرض الجرب بسبب قلة النظافة.

كانت المدرسة تفرض على من دخلها عدم الخروج منها حتى يتمّ دراسته بها ثم تسعى إلى توظيفه في دوايب الحكم، وإلاّ فمصيره ومصير أسرته التنكيل والعقاب. ولكن استطاع علي مبارك الخروج منها إلى مدرسة أبي زعبل لتعلم الطب، وهو التخصص الذي تخلّت عنه مدرسة المهندسخانة. وهي في الحقيقة مجرد حيلة فقط استعملها علي مبارك للخروج من مدرسته تلك. لأنه واصل دراسة الهندسة في المدرسة الطبية. قبل أن يعود إلى المهندسخانة كمتفوق في الهندسة، ويرسله محمد علي إلى فرنسا في بعثة علمية⁽²³⁾ (أحمد أمين، بيروت، ص 188 وما بعدها).

كما أقدم أونفونتان على تنظيم التعليم في مصر - وفق ما يراه طبعاً -، فقدم مقترحاً إلى نائب محمد علي السيد سليمان باشا⁽²⁴⁾، مقترحاً إنشاء مجلس للتعليم العام، ولجنة استشارية للعلوم والفنون. وسار محمد علي في هذا المقترح و جعل على رأس المجلس العام السيد مصطفى مختار باشا، وعضوية كل من رفاعة الطهطاوي، ولامبير، وكلوت باشا، وحكيكيان أفندي، ومحمد بيومي أفندي... للنظر في أمور المدارس وتنظيمها. وبعد استكمال مهمته خلفه مجلس المدارس للبحث في المحتويات والمناهج⁽²⁵⁾ (محمود صالح منسي، مصر، ص 65).

كما أمر محمد علي بتأسيس مدرسة المعادن سنة 1834 وجعل على رأس إدارتها السيد لامبير المتخصص في التعدين والمناجم. قبل أن يأمر سنة 1836 بإلحاقها رفقة مدرسة المهندسين بمدرسة المهندسخانة أو المدرسة المتعددة التقنيات ببولاق، التي جعل على إدارتها

السيد لامبير. كما أعدّ لامبير وأونفونتان مقترحات من أجل تطوير هذه المدرسة لتضاهي المدارس الأوروبية وعلى رأسها المدرسة المتعددة التقنيات بفرنسا⁽²⁶⁾ (محمود صالح منسي، مصر، ص 66).

كما أن التعليم الذي أقامته مصر تحت صبغة سانسيمونية، وأشرف عليه محمد علي كان تعليمًا عسكريًا في خدمة الجيش، " فالمدارس الحربية لتخريجه (الجيش)، ومدرسة الطب لتطبيبه، والهندسة لتصميماته، والمدارس الصناعية لإمداده، والبعثات لسد حاجاته، حتى إن المدارس كانت ثكنات عسكرية في نظامها ومأكلها وملبسها، ورتب المعلمين والنظار والمديرين رتب عسكرية... وكل أنواع التعليم على هذا الوجه في القاهرة والإسكندرية فقط، أما المدن الأخرى والأرياف فليس لها حظ من هذا التعليم"⁽²⁷⁾ (أحمد أمين، بيروت، ص 193-194).

ومن الذين امتنهنوا التدريس بمصر من السانسيمونيين أيضا نجد توماس (إسماعيل) أوريان (عريان كما في بعض الكتب التاريخية العربية) الذي بدأ نشاطه الثقافي رسميا بعد تعيينه في 20 أو 25 جوان 1834 كأستاذ للغة الفرنسية بمدرسة المشاة بدمياط من طرف المقدم - Lieutenant colonel - خليل أفندي، الذي وعده بأن ينقله في غضون شهر إلى المدرسة العسكرية التي أسسها بالمدينة نفسها، مقابل أجره شهرية مقدرة بألف (1000) جنيه.

ورغم عودة كبار السانسيمونيين إلى فرنسا ووفاة كثير ممن كانوا بمصر، إلا أن مشروعاتهم التعليمية بقيت مستمرة عن طريق من بقوا هناك. فهذا توماس أوريان وجرانال يواصلان تعليم اللغة الفرنسية في مدرسة دمياط والخانكة الذين أسسهما السانسيمونيون، وهذا لامبير، وهو على رأس إدارة المدرسة، يتولى تدريس أربعة تلاميذ عادوا من فرنسا دون إكمال دراستهم، فكان يدرّسهم ساعتين يوميا، ثم تم تعيينهم كمدرسين بنفس المدرسة⁽²⁸⁾ (محمود صالح منسي، مصر، ص 66).

كان لامبير مديرا ومدرسا في الوقت نفسه، فقد كان يدرس مواد الطبيعيات، والكيمياء ورسم الخرائط، كما عرّب كثير من كتب الرياضيات. أما الطلبة فقد اجتذبوا إلى هذه المدرسة لاتباع لامبير سياسة التوسط لهم من أجل توظيفهم في دواليب السلطة. وكان الهدف من ذلك هو تكوين فئة مصرية مثقفة على الطريقة الفرنسية تحكم البلاد وتكون قادرة على النهوض بالاقتصاد المصري. كما تولى تنظيم التعليم سنة 1841 بفعل نتائج العلاقات المصرية العثمانية، ومشروع إبراهيم باشا سنة 1848، وذلك رفقة سليمان باشا، وبيرون " Pirron"، ورفاعة الطهطاوي. وتواصل نشاط لومبير إلى غاية استقالته من على رأس المدرسة سنة 1849، وخلفه علي مبارك⁽²⁹⁾ (محمود صالح منسي، مصر، ص 66).

وفي النشاط التعليمي الفلاحي، حاول السانسيمونيون وعلى رأسهم أوليفيه، وطوشي، وبوفور " Beaufort"، ولامبي " Lamy"، والسيدة كلوريند " Clorinde" وأوليفيه " Olivier" سنة 1834، توجيه الفلاحة. وبعثوا بالسيد دوعي " Duguet"، و بوتي " Petit" إلى فرنسا من أجل الترويج لهذه النشاطات واستقدام الراغبين فيها إلى مصر. كما دعوا إلى اتباع الطرق العلمية الحديثة، فأنشأوا المدرسة الزراعية بنبوة سنة 1836، ثم أمر محمد علي بنقلها سنة 1839 إلى مدينة شبرا. ودعا هؤلاء إلى متابعة النشاطات الفلاحية والمالية⁽³⁰⁾ (Ismail Urbain, 1993, p 54) مقلّدين في ذلك مدرسة روفيل بفرنسا، ولذا أنشأوا المزرعة النموذجية ونادوا بتحسين سلالات الحيوانات، وتهجين أصناف أخرى، وتوجيه الحليب ومشتقاته إلى التصنيع، والاهتمام بدودة

القرز وإنتاج الحرير، وصناعة القطن⁽³¹⁾ (محمود صالح منسي، مصر، ص 69) الذي تولاه بصفة خاصة السيد هاردي "Hardi" مستفيدا من دعم محمد علي⁽³²⁾ (F.Ribout, Paris, 1859, p 93).

كما أسس السانسيمونيون مدرسة أبي زعبل للطب بمدينة فنقا بمصر، والتي تولى تأسيسها وإدارتها السيد كلو "Clot"، وهي المدرسة التي درس بها شيوخ من أبناء مصر مثل الشيخ علي مبارك.⁽³³⁾ (أحمد أمين، بيروت، ص 193-194) ومدرسة البيطرة من طرف السيد آمون "Hamont"، الذي أسسها وأدارها هو الآخر.⁽³⁴⁾ (Ismail Urbain, 1993, p 54).

خاتمة

حاول السانسيمنونيون تجريب أفكارهم بمصر بعد أن عجزوا عن تجريبيها في فرنسا، وكان أهم مشاريعهم على الإطلاق هو مشروع شق قناة السويس، نظرا لأهميته الاقتصادية ولتوافقه مع طموحاتهم أيضا. لكن عوامل كثيرة حالت بينهم وبين الوصول إلى تحقيق أهدافهم بمصر، فالتنافس البريطاني الفرنسي على مصر وعلى المنطقة العربية بصفة عامة آنذاك لم يكن يسمح بنجاح السانسيمنونيين الفرنسيين هناك. وكذلك تواجد المهندسين الإنجليز بها وسيطرتهم على المشاريع الاقتصادية منذ زمن لم يكن يسمح هو الآخر بنجاح الاستثمار الفرنسي في مجال الأشغال العمومية بمختلف أنواعه، هذا إضافة إلى تخوف محمد علي من السانسيمنونيين وأفكارهم.

وإذا لم ينجح السانسيمنونيون في مشاريعهم الاستثمارية هذه في مجال الأشغال العمومية من جسور وشق القناة، إلا أنهم نجحوا بدرجة كبيرة في مجال التعليم والفلاحة، إلى غاية نهاية عهد محمد علي على الأقل خاصة حين نجد أن المدارس المصرية أصبحت كلها مسيرة وفق البرامج الفرنسية رغم تعريب كتب الرياضيات الذي وظفه لامبير.

قائمة المصادر والمراجع

- 1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6. دار الغرب الإسلامي، لبنان، بيروت، 1998.
- 2 - Emerit Marcel. Les saint-simoniens en Algérie. Edition les belles lettres. Paris.1941.
- 3 - مصطفى عبيد، الفكر الاستعماري السانسييموني في مصر والجزائر 1833 - 1870، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013.
- 4 - Michel Levallois .Ismayl Urbain (1812 -1884) Une autre conquête de L'Algérie. Maisonneuve et Larose .Paris. 2001.
- * للمزيد من التوسع حول الجريدتين وخاصة جريدة " المنتج " يرجى العودة إلى كتاب:
Membres du Conseil Enfantin, Œuvres de Saint-simon et d'Enfantin, 1Vol, E .Dertu, Paris, 1865, P 182 – 184.
- 5 - محمود صالح منسي، مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفرديناند دي لسييس، دار الاتحاد العربي للطباعة، مصر. بدون سنة نشر.
- 7 - إسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، ط 1، 1997.
- 8 - جراتيان لويير، "دراسة موجزة عن الجزء الغربي من ولاية البحيرة والذي كان يعرف قديما باسم إقليم المريوطية". (جولة في إقليم المريوطية)، بموسوعة وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، مج 2. دار الشايب للنشر، مصر، بدون سنة نشر.
- 10 - Ismayl Urbain, Voyage d'Orient. Suivi de Poème de Ménilmontant et d'Egypte. Préface Régnier Philippe, L'Hamattan. 1993.
- 12 - كان السيد فورنال من كبار السانسييمونيين، وكان مكلفا بالتمهيد للمشاريع السانسييمونية والتفاوض من أجل قبول محمد علي بتطبيق برنامجهم وإنجاحه.
- 20 - محمد بيومي أفندي هو السانسييموني الفرنسي ماشيرو بعد إسلامه. وهو مهندس خريج المدرسة المتعددة التقنيات بفرنسا.
- 22 - أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت.
- 24 - سليمان باشا هو العقيد الفرنسي السيد ساف " Sève " تجنس بالجنسية التركية وتقلد منصب نائب الباشا بمصر ثم أصبح هو نفسه الباشا إلى غاية 1850 على رواية توماس أوريان. لأن كتب التاريخ المتداولة لم تذكر أبدا -على حد علمي- أن سليمان باشا قد تولى منصب الباشا في مصر. ينظر، أوريان، رحلة الشرق.
- 25 - F.Ribourt , Le Gouvernement de l'Algérie 1852 – 1858, Paris, 1859.

بجاية في عهد بني غانية

أ. طويلب عبد الله